معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 17/ العدد 1 (جوان2022): ص.ص:656-676

العرب في الجاهلية

دراسة في الحياة الاجتماعية والدّينية

The Arabs in the pré-islamic

A study in social and religious life

د. عبد الكريم معمري، جامعة المسيلة، الجزائر،
abdelkrim.mammeri@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/22؛ تاريخ القبول: 2021/12/11؛ تاريخ النشر: 2022/06/01

ملخص:

مما لا شك فيه أن العرب كانوا يعيشون حياةً مثل غيرهم من الأمم، فيها جانبٌ اجتماعيّ متمثل في تلك العصبية التي كانت تجمعهم، ومع ذلك فقد عرف العرب طبقيةً اجتماعية أيضا، اختلفت قوة وضعفا بين كلّ قبيلة وأخرى، إضافة إلى صفاتهم وأخلاقهم التي عُرفوا بها بين جيرانهم، كما كان للمرأة تمثيلٌ في ذلك المجتمع يأخذ بين الاحتقار والاحترام، من الناحيّة الدّينية، ذكر القرآن أنّ العرب كانوا عَبَدَة أوثانٍ يعرفون الدِّين والتّديّن، ويهرعون مسرعين إلى ذبح القرابين تقرّبا للآلهة، فقد كان لهم أصنام ذكرها القرآن كاللاّت والعزّى ومناة، وكان منهم مَن تنصَّر أو تهَوَّد.

كلمات مفتاحية: العرب؛ الحياة الاجتماعية، الحياة الدينيّة.

Abstract

Undoubtedly, Arabs were living a life like other nations, in which there was a social aspect represented in that fanaticism that united them. Nevertheless, the Arabs knew social stratification as well, strength and weakness differed between each tribe and another, in addition to their characteristics and morals with which they were known. Among their neighbors, as women were represented in that society, taking between contempt and respect, from a religious point of view, the Qur'an mentioned that the Arabs were idolaters who

knew religion and religiosity, and rushing to slaughter sacrifices to approach the gods, they had idols mentioned in the Qur'an such as Al-Lat and Al-Uzza.

Keywords: Arabs; social life; religious life.

مقدمة

عاش العرب في عصر ما قبل الإسلام مثل غيرهم من الأمم الأخرى التي عاصرتهم في بيئة خاصة بهم، وعرفوا أنظمة اجتماعية وسياسية وأخلاقية لصقت بهم، وعدّوها، إذ ذاك، من أفضل ما يمكن للعربي الذي تعوّد على الحرّية أن يعيشه ضمن هذه الأطر التي رسمها لنفسه ولقبيلته على مرّ العصور التي تقلّبوا فيها دهرا طويلا.

وكان لزاما علينا، والحالُ هذه، أن نستشكل من خلال هذا التّقديم البسيط لفظا، الزخم دلالةً، عن مدى تفاعل العربيّ آنذاك مع بيئته، ومع بني رهطه الأدنين من خلال هذا التّعايش، ثم إلى أيّ مدى تأثر العربيّ بالمسألة الوجودية من خلال ارتباطه بالآلهة، وعلاقته مع الدّيانات الإبراهيمية آنذاك، وما المكانة التي احتلتها المرأة العربيّة في ظروف قاهرة كتلك الظروف التي لم يكن لها حظٌّ من احترام إلا ما ندر من أمّ الولد، وإلّا ما كان من تلك العربيّة الصّريحة النسب والحسب، وما الذي كان يفضل به العرب ويتمايزون عن غيرهم من الأمم من تلك الأخلاق التي جعلت أرضهم مبعث رسالة إنسانية جديدة بعد ذلك.

إذن، لم يكن النظام الاجتماعي للعرب بدعا من الأنظمة البدائية الأخرى، فقد كان العرب تبعا لإيمانهم بالأنساب إيمانا شديدا، يتّبعون نظاما سياسيا متمثّلا في القبيلة التي كان يشعر أفرادها بالانتساب إليها والاعتزاز بها، مثلما هو الحال بالنسبة إلى الوطن في وقتنا هذا, فلقد كانوا يؤمنون بالأصل الواحد ذي الدم الواحد واللحم الواحد، وكذا الوطن الواحد بالنسبة للحضريين منهم. أما البدو الرحّل فكان موطنهم يرحل معهم إلى حيث المراعي والماء.

أ/ الحياة الاجتماعية للعرب:

كان يجمع القبيلةَ عصبيةٌ هي أساس بقائهم ولكن هذه العصبية، لربّما كانت،

بعض الأحيان، ضئيلة، حيث لم يتمكن العرب من أن يجمعوا أنفسهم تحت ملك واحد أو رئيس واحد، حتى أصحاب الملك والإمارات منهم فإنهم "لم ينفذوا فعلا إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي، بحيث يجمعون تحت لواء واحد، إنما هنالك اتحاد قَبَليٌّ له رئيس"[1].

وعادة ما يكون رئيس القبيلة أو سيدها شيخا كبيرا مجرّبا خَبِر الحياة وضروبَها ويتميز بالحنكة والحكمة وتقدير الأمور وسعة الثروة وكثرة الولد وبشجاعةٍ مشهودة له, حيث يَسُوسُ القبيلة ويقودها في الحروب ويستقبل الوفود ويعقد الصلح والحلف وغير ذلك مما تتطلبه حياة المجتمع القبلي غير أن سلطة السيد معنوية يستمدّها من أقرانه ومُثَلائِه في القبيلة رؤساءِ الأُسَر والرّهوط، وهم جميعا يمثّلون مجلسا قَبَليا تلعب فيه الشورى دورا كبيرا " وهذا ما يُسَوّغ إطلاق صفة الديمقراطية على المجتمع العربي، وهي تسمية صحيحة إذا كان المراد منها التوازن الديمقراطي بوصفه غريزة اجتماعية تقوم مقام المؤسسات السياسية "[2].

وكانت هذه السلطة المعنوية إذا تطورت وأخذت منحًى استبداديا فجزاؤها مثل جزاء كُلَيب التّغلبي الذي قتله جَسَّاس بن مُرَّة من بني بكر بعد أن بغى كليب وتجبّر[3]، وما كان بعد ذلك من خبر حرب البسوس والتي أخذت بُعدا أسطوريا[4].

كما أن سيد القبيلة [5] لابد أن يتحلى بصفات أخرى كالكرم والنجدة والشجاعة وإغاثة الملهوف ومعاونة الضعيف والمعوزّ، ولا بد أن يكون حليما كبيرَ النّفس حازما مهيبا ذكيا متحمّلا لأكبر قسطٍ من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديّات.

---

(1) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ط18، دار المعارف، مصر، 1995، ص58.

(2) بلاشير، تاريخ الأدب العربي .ترجمة إبراهيم الكيلاني. الدار التونسية للنشر، وم.و.ك.الجزائر.1986، 1/ 36 وما بعدها.

(3) ينظر إلى القصة كاملة إلى "حرب البسوس" في: الأصفهاني، الأغاني، شرح سمير جابر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 ، 5/39-69 . وعبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر 1997، 1/378 وما بعدها.

(4)يذهب أكثر المستشرقين إلى أنّ حرب البسوس شابتها الأسطورة. (ينظر في بلاشير، تاريخ الأدب العربي. 1/37، وفي: 1/258 حيث ترجمة " مُهَلْهِل " أخي كُلَيْب.

(5) ظاهرٌ أنّ فردية العربي وإباءه وحبّه لحريّته وقف حائلا لمبدأ الوراثة في الرئاسة القَبَلية, بل إن شيوخ =

ولقد كان أفراد القبيلة الواحدة جميعُهم يضعون أنفسَهم وأموالهم في خدمتها وصَونِ حقوقها، بل إنهم كانوا لا يؤمنون إلا بها، وهذا ما يفسّر تجاهلهم للقبائل الأخرى مما جعلهم يتميّزون بحب الإغارة والسلب والسّبي[01] مما يشيع في نفوسهم نوعا من الزهو والخيلاء كمنتصرين غير مبالين بالآخرين الذين يُلْقُون في قلوبهم الرعب، وكانت الغارات على مدار الحول إلا الأشهر الحرم، بل إن حميّتهم الجاهلية كانت تدفعهم إلى القتال في هذه الأشهر غير مبالين، كما كان في حرب الفِجَار[02] "بين قريش ومَن معها من كنانة، وبين قيس عَيلان[03]"، وقد شهدها الرسول ﷺ وهو ابن أربع عشرة

=

القبائل كانوا يأنَفُون من التسوّد عن طريق الوراثة وقد أشار إلى هذا المعنى عامرُ بنُ الطُّفَيل أحدُ ساداتِ بني عامر في قوله:

وإنّي وإنْ كُنتُ ابنَ سيّد عَامِرٍ وفي السِّرِ منها والصَّريحِ المُهَذَّبِ
فَمَا سَوَّدَتْني عَامرٌ عَن وِرَاثَــةٍ أَبَى الله أنْ أسـمُو بأمّ ولا أبِ
ولَكـنَّني أحْمِي حِمَاها وأتَّـقِي أذَاهَا وأرمِي مَن رَمَاهَا بمَقنبِ

(عبد العزيز سالم، ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام ،362/1 .هامش رقم: 1)

(01) لعلّ خير ما يمثّل ذلك قولُ القَطَاميّ الشاعر:

فَـمَن تَكِن الحَضَارةُ أعْجَبَتهُ فَـــأيَّ رجَـالِ باديـــةٍ تَـرانا
ومَن رَبَطَ الجِحَاشَ فإنَّ فِيـنا قَنا سُـلُباً وأفْرَاسـاً جِـسَانا
وكُنَّ إذا أغَـــرْنَ عَلَى قَبِيـلٍ فَأَعْوَزَهُنَّ نَهْـبٌ حَـيثُ كَانا
أَغَرْنَ مِن الضّباب عَلى جِلالٍ وضَبَّةَ إنـهُ مَن حَـانَ حَـانا
و أحْياناً عَلى بَكْـــــرٍ أخِينَا إذَا لـــم نَجِـدْ إلاَّ أَخَـــــانا

قنا: جمع قناء، وسلبا: طوالا، قبيل: الجمع من الناس، الضباب: اسم قبيلة، والجِلال: المجاور،وقوله من حان حانا: أي من جاء أجَلُه فهو لابدَّ هالك)، ينظر: أحمد أمين، فجر الإسلام، ط11، دار الكتاب العربي. لبنان. 1975، ص: 09.

(02) الفِجار (بكسر الفاء) بمعنى المفاجرة، وذلك أنه كان قتالا في الشهر الحرام فَفَجَروا فيه جميعا فسمي الفجار، وهذا هو الفِجار الأخير وقبله أيامٌ ثلاثة: الفِجار الأول، والثاني، والثالث (ينظر تفصيل هذه الحروب. الأغاني.22/58-79).

(03) سيرة ابن هشام. شرح وتعليق: طه ع الرؤوف سعد.مكتبة الرياض الحديثة. (د.ت)168/1. وفيها سبب حرب الفجار حيث قتل البراضُ بن قيس عروةَ الرّحال بنَ عتبة في الشهر الحرام، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

سنة، حيث قال: " شهِدتُ الفِجَار وأنا ابن أربع عشرة سنة، وكنت أنبل على عُمُومَتي"[04].

وكانت هذه الحرب - كغيرها من الحروب الأخرى والتي سمّوها بأيّام العرب- على مبدأ عامٍ هو " يومٌ لَكَ ويومٌ عَلَيك". ومن أشهر هذه الحروب والأيام، يومُ ذِي قار، وفيها انتصر العرب على الفرس، ويوم شِعَبِ جَبَلَة وكان بين عَبْسٍ وذبيان وحلفائهما من بني عامر وبني تميم، ويوم البَسُوس ويوم داحِس والغَبراء ويوم خزاز ويوم الكُلابِ الأول ويوم دَارَة مَأْسَل وغيرها مما لا مجال إلى ذكره الآن وهو مبثوث في كتب السير والتاريخ القديم.

ب/ طبقات المجتمع:

كان المجتمع القبلي يتألف من ثلاث طبقات اجتماعية، طبقة الصُّرحاء وهم أبناء القبيلة" ذوو الدّم النقي لأنهم من أب واحد ومنهم الطبقة الأرستقراطية في القبيلة وفيهم رئاستها"[1] وتعطي القبيلة لهذه الطبقة حقوقا منها أنها تسبغ حمايتها عليهم وتعطي لهم حق الإجارة، فإذا سلك فردٌ منها سلوكا غير مقبول يسيء إلى سمعة القبيلة ويجلب لها العار والسّبّة خلعته وطردته فيُسَمَّى خليعا أو طريدا، "وكان هذا الخلع يتخذ صورة إعلانٍ رسميٍّ يُذاع على النّاس في المواسم والأسواق... وقد يبعثون مناديا بذلك، وقد يكتبون به كتابا"[2]، وقد يفعلون غير ذلك من أجل ألا تتحمّل القبيلة جرائره أو جريرة مَن يعتدي عليه، وتنزع عنه الحصانة والجنسية القبلية، ومن هؤلاء الخلعاء طائفةُ الشعراء الصعاليك المشهورة كالشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براق.

أما الطبقة الثانية فهي طبقة الموالي، وهم عتقاء القبيلة من العبيد الذين يظهرون بأسا وقوة، أو الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى بعد خلعهم، فيطلبون الجوار والحماية أو يدخلون ضمن حلف. ورابطةُ الجوار مؤقتة تنتهي بخروج الجار من كنف مجيره، أما رابطة الحِلف فهي قوية غير مؤقتة، ومن أشهر الأحلاف العربية[3] والتي

(04) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. دار الفكر. (د.ت).290/3.

(1) حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، .دار الجيل. بيروت.1986.ص:90.

(2) حنّا الفاخوري، المرجع السابق. ص: 89.

(3) كان العرب يعقدون الحِلفَ على دم الذبائح، أو بغمس الأيدي في جفانٍ مملوءة بالدماء، أو بغمسها في الطيب أو غيرها.

تمت بين القبائل: حلف الفُضُول وقد شهده النبي ﷺ [1] وحِلف الرّباب وحلف الحِمس وحلف قريش والأحابيش[2].

أما الطبقة الأخيرة فهي طبقة العبيد الذين يؤسَرون في الحرب أو الرّقيق الذين يُجلَبون من الحبشة وغيرها، ويباعون في الأسواق، وكانت هذه الطبقة محرومة من الامتيازات وتستعمل للأعمال الشاقة أو التي تنفر العرب من القيام بها كالحِدادة والرعي والنجارة وغيرها.

وكما هو الحال في كل مجتمع وحضارة منذ القديم إلى يومنا هذا فإن طبقة الأغنياء تمثل قلّة إذا ما قيست بالسّكان، حيث كان من العرب فريقٌ ينعَم بالثروة الفاحشة والترف الباذخ، وفريق يمثل السَّوادَ الأعظم يعاني من الفقر والحاجة والعَوَز، وكان الأغنياء منهم يعملون بالتجارة والزراعة في الواحات الداخلية، وأدى اختلاطهم بالروم والفرس إلى الأخذ منهم في عادات أكلهم وشربهم فكانوا يتأنّقون فيهما، ويذكرون أن عبد الله بن جدعان أتى إلى العرب بطعامٍ لا عهد لهم به وهو الفالوذج الفارسي[3].

كما لعبت الأسواق من مثل سوق عدن، وعكاظ، وذي المجاز، والمجنة، والمربد دورا هاما في تنمية رؤوس أموال الأغنياء وتنشيط الحركة الاقتصادية التي أثّرت بنوع أو بآخر في حياة العرب ومعيشتهم.

ج/ صفات العرب:

يعد الكرم صفةً من صفات العرب الأكثر شيوعا في طبيعتهم بل "حتى أصبح التذكير بمظاهره ضربا من نوافل الكلام"[4]، وقد كانت الصحراء سببا قويا في تنمية

(1) قال رسول الله ﷺ: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا، ما أحبُّ أنَّ لي به حُمُر النّعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت " - سيرة ابن هشام.123/1 وما بعدها. وفي الكتاب أيضا أشهر أحلاف العرب.
وكان حلف الفُضُول بعد الفِجار، ومفاده أنّ قبائلَ من قريش تداعَوا إلى حلفٍ فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وتعاقدوا وتعاهدوا على ألاّ يجدوا بمكّة مظلوما من أهلها وغيرهم ممَّن دخلها من سائر الناس إلاّ قاموا معه وكانوا على مَن ظلمه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلَمَتُه. (ينظر: سيرة ابن هشام. 22/1 وما بعدها).

(2) ينظر عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام،. 384/1.

(3) ينظر: عبد العزيز سالم،المرجع نفسه.386/1.

(4) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، 43/1.

هذه الفضيلة لديهم بما تحمله من كل معاني القحط والجفاف، حيث كان الغني الكريم يذبح إبله ويطعم بها عشيرته كما يذبحها مرتاحَ البال قريرَ العين لكلِّ من يطرق بابه من الأضياف، وكان منهم من يشعل النار على رؤوس الجبال لدعوة كلّ من ضلّ الطريق، وقد تغنّى الشاعر القديم بكرمه أو بكرم ممدوحه، ومن ذلك نرى لبيد بن ربيعة يقول في معلقته[1]:

وجَزُورِ أَيسَارٍ دَعَوتُ لِحَتفِها ... بمَغالِق مُتشابِهٍ أجْسَامُها
أدعُو لهُنَّ لِعاقِرٍ أو مُطْفِلٍ ... بُذِلَت لجيران الجَميع لِحامُها
فالضّيفُ والجارُ الجَنِيبُ كأنّما ... هَبَطا تبالَةً مُخْصِباً أهْضامُها
تأْوِي إلى الأَطْنابِ كلُّ رَذِيلَةٍ ... مِثل البَلِيَّةِ قَالِصٌ أهْدامُها

فهو يفتخر بنحره لإبله التي هي من صلب ماله لا من كسب القمار، وإن منها الناقة العاقر لأنها أسمن، ومنها الناقة التي معها ولدها لأنها أنفس وأغلى، وأنها محلّلة للجيران وللضيف وللغرباء، وشبه نزولهم عليه كمَن نزل وادي تبالة أيام الربيع، ثم يذكر بأنه تأوي إلى حبال بيته كلُّ فقيرةٍ مسكينة ضعيفة ويشبّهها بالبليّة في قلّة تصرفها وعجزها عن الكسب والارتزاق.

ونجد شاعرا آخر لا يقلّ كرما عن سابقه، وهو طرفة بن العبد، يقول في معلّقته مبيّنا كرمَه[2]:

وبَرْكٍ هُجودٍ قد أثَارَتْ مَخَافَتِي ... بَوادِيها أمشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ
فَمَرَّتْ كَهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ ... عَقِيلَةُ شَيخٍ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدِ
يَقولُ وقَد تَرَّ الوظِيفُ وسَاقُها ... أَلَسْتَ تَرى أنْ قَد أَتَيتُ بِمُؤْيِدِ

(1) الزّوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف. بيروت. 1994،(معلقة لبيد)ص: 248 وما بعدها.
(الجنيب: الغريب- الأطناب: حبال البيت- رذية: الناقة التي تخلف في السفر لهزالها وكلالها. واستعارها للفقيرة، البليّة: الناقة التي تشد على قبر صاحبها حتى تموت- قالص: قاصر- أهدامها: الخَلِقُ من الثياب والبالي منها).
(2) الزّوزني، المصدر نفسه. (معلقة طرفة بن العبد)ص: 97 وما بعدها.
(برك: الإبل الكثيرة الباركة- بواديها: أوائلها- عضب: سيف قاطع- الكهاة والجلالة: الناقة الضخمة السمينة - العقيلة: كريمة المال والنساء- الوبيل: العصا الضخمة- يلندد: الشديد الخصومة- تَرَّ: سقط- المؤيّد: الداهية العظيمة).

وقـال: ألاَ مـاذا تَـرَونَ بشَـــاربٍ شَديـــدٍ عَلَينـا بَغيُـهُ مُتَـعَـمِّدِ
وقـال: ذَرُوهُ إنّمـا نَفْعُهـا لَـــــه وإلاَّ تَكُفُّـوا قَاصِيَ البَـرْكِ يَـزْدَدِ
فَظَـلّ الإمـاءُ يَمْـتَلِلْنَ حُـــوارَها ويَسـعَى بهـا بالسَّـدِيفِ المُسَرْهَـدِ

فهو يسرد لنا حاله وهو مارٌّ بإبلٍ كثيرة باركة قد خافت منه وهو يحمل سيفا حادّا، ونفرت منه لِتَعَوُّدِها على ذلك، ثم يذكر بأنه قد مرّت به ناقةٌ ضخمة وهي كريمةُ مالِ الشيخ أبيه الذي كبر فَنَحُل جسمُه حتى صار كالعصا الضخمة يَبَسا وهو شديد الخصومة، ثم يصوّر أباه وهو يقول بعد أن سقط وظيفُ الناقة وساقُها بأنْ قد أتى بداهية شديدة بعقره هذه الناقة الكريمة، ويستطرد أبوه الشيخ قائلا للحاضرين: أيّ شيءٍ ترون أن نفعل بشارب خمر بغى علينا عن تعمّد وقصد، ثم يصوره قائلا وقد استقرّ رأيه: إنما نَفْعُ هذه الناقة له، وإن أنتم لم تكفّوه ازداد نحرا للإبل، وأخيرا يصوّر طرفةُ الإماءَ وهنّ يشوين ولد الناقة الذي خرج من بطنها، وذكر الحُوار دالٌّ على أنها كانت حُبلى وهي من أنفس الإبل عندهم.

وإلى جانب الكرم نجد الوفاء بالعهود والوعود، ومن ثمة أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وضربوا على أنفسهم عهدا بالوفاء له ونصرته مادام محتميا بالمجِير، ومن أمثلتهم المشهورة في الوفاء قولهم:" أوفى من السّموأل" وهو السموأل بن عريض بن عادياء اليهودي صاحبُ الحصن المعروف بالأبْلَق[1] بتيماء، ويضرب به المثل في الوفاء لأنه أسْلَمَ ابنَه للقتل، ولم يخن أمانته في دروعٍ ائتَمَنَها عنده امرؤ القيس الشاعرُ لما صار إلى القسطنطينية طالبا معونة القيصر[2] وفي ذلك يقول[3]:

وَفَيـتُ بِـأدْرُعِ الكِنْـــدِيّ إنّـــي إذا مَـــا ذُمَّ أقـــوامٌ وَفَـيْـــتُ
وأوصَـى عَـــادِيا يـــومًا بـــــألاَّ تُهَـــدّمَ يـا سَـــمَـوألُ مـا بَنيـتُ

(1) وفي ذلك يقول امرؤ القيس مادحا:
ولقَد أَتَيتُ بني المصّاصِ مُفَاخِرا وإلى السَّمَـوأَلِ زُرتُه بِالأبْـــلَقِ
فَأَتَيتُ أفْضَلَ مَن تَحَمَّل حَاجَـةً إنْ جِئتَهُ في غَـارِمٍ أو مُرهِـــقِ
عَرَفَتْ له الأقْـوامُ كُلَّ فَضيلَةٍ وحَوَى المَكارِمَ سَابقاً لم يُسْبَقِ (الأغاني.116/9).

(2) انظر خبر امرئ القيس مع السموأل في: الأغاني: 123/22 و140/9 و115/9.

(3) الأصفهاني، المصدر نفسه.125/22 و140/9 (الكندي: هو امرؤ القيس منسوبا إلى كِندَة موطِنه).

بَنَى لي عَادِيا حِصـــناً حَصِينـا ومَـاءً كُلَّـــما شِـئْتُ اسْـــتَقَيْتُ

وفي ذلك يقول الأعشى مادحا السموأل ومستجيرا بابنه شُرَيح ويعرض عليه أن يكون كوالده في الوفاء[1]:

كُن كالسموأل إذْ طافَ الهُمامُ به في جَحْفلٍ كسَوادِ الليلِ جَرَّارِ
إذ سَامهُ خَطَّتَي خَسْفٍ فقال لـه قُـل مـا تشَـاء فـإني سَـامعٌ حَـارِ
فقال: غَدرٌ وثَكلٌ أنـــــتَ بينهما فـاخْتَر، ومـا فيهمـا حَـظٌّ لمخْتـارِ
فشَكّ غيرَ طـــــويلٍ ثمّ قـــالَ له اقتُل أسِيرَكَ إني مَانِعٌ جـــارِي
وسَوفَ يَعْقُبُنِيهِ إنْ ظَفِـرتُ بـــه رَبٌّ كـريمٌ وبِـيضٌ ذاتُ أطْهـــارِ

كما كان العرب يتغنون بالشجاعة والعزة والكرامة والأَنَفَة، ويغيثون الملهوف ويحملون الضعيف ويعفُون عند المقدرة ويأنفون من الضيم، كما أنِفَ عمرو بن كلثوم وثار على عمرو بن هند حين علِم بإهانة أمّه في بلاطه فأرداه قتيلا[2]، وصوّر كلَّ ذلك في معلقته الشهيرة.

على أن العرب شاعت بينهم آفات اجتماعية من أهمها الخمر وسبي النساء والقمار ووأد البنات والأخذ بالثأر، وقد حدثونا عن الأعشى بأنه عدل عن وجهته إلى الرسول ﷺ مادحا عندما لقيه أبو سفيان وقال له: "إنه ينهاك عن خلالٍ كلها بك رافِقٌ ولك موافق" فلما سأله عنها أجابه بقوله: الزنا والقمار والخمر[3]، ولأمرٍ ما هاجم الإسلام[4] هذه الآفات ووضع لكلٍّ منها عقابا صارما حتى يكفّوا عنها ويتّبعوا الطريقَ السّوي.

(1) الأصفهاني، المصدر السابق.139/9 و126/22 (حارِ: مُرَخَّم حارث بن ظالم، وهو الذي قتل ابنَ السَّمَوأل- بيضُ ذات أطهار: نساء بيض طاهرات).

(2) ينظر إلى قتل ابن كلثوم لعمرو بنِ هِند، وذلك بعد أن أهانت هندٌ وهي عمّة امرئ القيس الشاعر ليلى بنتَ مهَلهِل أخي كليب أمَّ عمرو بنِ كُلْثوم ينظَر إلى القصة في: الأغاني.56/11.

(3) ينظر إلى القصة كاملة في الأغاني. 147/9.

(4) في القرآن آيات عديدات نزلت منقِرة من هذه الآفات منها:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... ﴿٢١٩﴾ ﴾ البقرة (1) آية: 219. وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ =

د/ المرأة في المجتمع الجاهلي:

في مجتمع الجاهلية نوعان من النساء: حُرّات وإماء، فأما الإماء فمنهن السُودُ، ومنهن الجواري اللّواتي كنّ يسبين من الحروب والغزوات، وكانت هذه الطبقة تباع في الأسواق مثلها مثل العبيد، وكان منها العاهرات اللواتي يمارسن الفاحشة ويعملن في الحانات المنتشرة يسقين الخمر، وكان منها القَينات اللائي يضربن على المزهر ويغنين، وكان منها أيضا النساء اللواتي يخدمن في البيوت ويقمن بأعمال الشريفات وقد يرعين الإبل والأغنام، ولا يعتقن إلا بعد أن ينجبن أولادا ذكورا يقومون بأعمالٍ بطولية مشرّفة كما هو الحال مع عنترة بن شداد العبسي عندما أظهر شجاعة وبسالة لا نظير لهما أدخلته ضمن رجال الأساطير.

وأما الحرات فكنّ يُعاملنَ معاملة خاصة، وكنّ يقمن بطهي الطعام ونسج الثياب إلا إذا كنّ من الشريفات المخدومات اللواتي يتخذنَ الجواري والإماء ليقمن بأعمال البيت، وكن يخترن أزواجهن[1] ويفارقونهم إذا لم يحسنوا معاملتهن.

كما كنّ يرافقن الرجالَ في الحروب "يُحمّسن المهاجمين ويقرعن المعوّقين والجبناء، فتُحمَل ابنة السيد على جمل في هودج... يدافعون عنها حتى الموت"[2].

وكن يداوين الجرحى ويشتركن في القتال ويرثين موتاهم كما فعلت الخنساء في رثاء أخويها صخر ومعاوية[3]، وكنّ يحرّضن على الثأر للقتلى[4] ويغضبن ويُعَيّرنَ الرجالَ إن هم

=

ٱلصَّلَوٰةٌ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ سورة المائدة (05) آية:91. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ سورة الإسراء (17) آية: 32.

(1) جاء في كتاب الأغاني أنّ دُريد بن الصّمة الشاعر خطب الخنساء من أبيها فقال له بعدما أثنى عليه:" ...ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكرٌكَ لها وهي فاعلة " فرفضت وقالت لأبيها:" يا أبتِ أتُراني تاركةً بني عمّي مثل عوالي الرّماح، وناكحةً شيخَ بني جُشَم هامةَ اليوم أو غد " أي أن هلاكه وموتَه قريب. الأغاني.27/10.

(2) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، 45/1.

(3) ينظر الخنساء وخبرها وخبر مقتل أخويها في: الأغاني: 72/15-108.

(4) كما كانت تفعل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان حين حضّت على الثأر بعد مقتل أبيها وعمها وأخيها في معركة بدر الكبرى، قال صاحب الأغاني في : 185/15:" قامت هند بنت عتبة في النسوة اللواتي معها وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ويحرّضنَهم، فقالت هند فيما تقول: (رجز)

=

قبِلوا بالدّيّة مثلما فعلت كَبْشَةُ أخت عمرو بن معد يكرب، وقد سمعت بمقتل أخٍ لها، وقد همّ عمرو هذا بقبول الدية فقالت تعيّره وتحرّض قومَها على الثأر[1]:

ودَعْ عنكَ عَمْرا إنّ عمْرا مسالِمٌ ... وهل بَطنُ عمروٍ غيرُ شِبرٍ لمَطْعَمِ
فإنْ أنتمُ لم تقبلُوا واتَّدَيْتُمُ ... فَمَشُّوا بآذَانِ النَّعامِ المُصَلَّمِ

وقال عمرو قصيدةً له بعد ذلك منها[2]

أرِقتُ وأمْسَيتُ لا أرقُدُ ... وسَاوَرَني الموجِعُ الأسودُ
وبتُّ لِذِكرى بني مازِنٍ ... كَأنّي مُرتَفِقٌ أرْمَدُ

ومن أهمية المرأة عند العرب ابتداؤهم في قصائدهم بذكر حبيباتهم وصواحبهم وزوجاتهم حيث لم " تكن المرأة مهملة، بل كان لها قدرها عندهم، كما كان لها كثير من الحرية، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء، وقصة اتجار الرسول ﷺ في أموال خديجة أمِّ المؤمنين مشهورة"[3].

ولقد حرّم الإسلام بعض الزيجات التي تهان بها المرأة، وقد اشتهر في الجاهلية زواج المتعة إلى أجَلٍ فإذا انقضى افترقت المرأة عن الرجل، وكان زواج المقت وهو أن يتزوج الرجل زوجة أبيه، وزواج الشغار وهو أن يتزوج رجلٌ أختَ صديقه على أن يزوجه أخته، إلى غير ذلك مما كانوا يبيحونه لأنفسهم.

وأما ما كان من وأد البنات فأكثر العلماء والمفسرين يرجعون هذه الظاهرة لأسباب منها الدينية كإظهار الشكر لله على نعمه، ومنها الاجتماعية كالفقر والعوز وكثرة البنات، وظاهر من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا

=

إنْ تُقبِلوا نُعانِقْ ... ونَفرشُ النَّمارِقْ
أو تُدبِروا نُفارِقْ ... فِراقَ غيرَ وَامِقْ
وتقول: إيْهَا بَنِي عَبْدِ الدَّارْ ... إيْهَا حُمَاةَ الأَدْبَارْ
ضَرباً بِكُلِّ بَتَّارْ

و ينظر أيضا: الأغاني: 391/12 وما بعدها و86/24.

(1) الأصفهاني، المصدر نفسه. 221/15 (اتّدَيتم: قبلتم الدية - المصلّم: المجدّع أي المقطوعة أذنه).

(2) الأصفهاني، المصدر نفسه، (مرتفق: متّكئ على مرفق يده).

(3) العصر الجاهلي. شوقي ضيف، ص:75.

كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾[1] وقولـه تعـالى:﴿...وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ...﴿١٥١﴾﴾[2] أن العامل الاقتصادي هو أقوى هذه الأسباب والعوامل، والظاهر أن الوأد كان من صفات أجلاف قساة القلوب لا يفارقهم إلى غيرهم من حيث إنّ البنات يتعرضن للسّبي والخطف، وحسب ذلك من سُبَّةٍ لهم ما بعدها سُبّة، وعار يلحقهم أبد الدهر ما بعده عار.

هـ- الحياة الدينية:

1- الوثنية في أرض العرب:

كانت الكثرة الغالبة من العرب في الجاهلية على الوثنية التي تؤمن بقوى إلهية كثيرة، وتذكر الروايات أن عمْرا بنَ لُحَيٍّ هو أول من أدخل هذه الأوثان والأصنام إلى أرض العرب، فقد جاء في السيرة أن الرسول ﷺ قال لأكثم بن الجون الخزاعي: " يا أكثمُ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصْبَهُ (أمعاءه) في النار، فما رأيت رجلا أشبهَ برجلٍ منكَ به، ولا بك منه، فقال أكثم عسى أن يضرّني شَبَهُهُ يا رسول الله ؟ قال: لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غيّر دينَ إسماعيل فنصب الأوثان وبَحَرَ البحيرة وسيّب السائبة ووصَل الوصيلة وحمى الحامي"[3].

وجاء في السيرة أيضا أن ابن لحي هذا خرج من مكة قاصدا الشام، فلما حلّ بقرية مآب وكان يسكنها يومئذ العماليق، فرآهم يعبدون الأصنام، فلما سألهم عن ذلك:" قالوا له: هذه الأصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا

(1) سورة الإسراء (17). آية:31.

(2) سورة الأنعام (06). آية:151.

(3) سيرة ابن هشام، 71/1 ومن ذلك قوله تعالى:﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ ، - ينظر تعريف كل واحدة منها في معاجم اللغة وأيضا في : سيرة ابن هشام. 82/1-84. وفي: العصر الجاهلي. شوقي ضيف، ص: 93. وفي: محمد الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط4، دار الفكر العربي.القاهرة، 1994، ص497 وما بعدها.

تعطونني منها صنما فأسيرَ به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له هُبَل، فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه"[1].

والصنم يكون غالبا عبارة عن تمثال، أمّا الوثن فيكون حجرا، وقال السهيلي: "يقال لكلّ ما كان من حجر وغيره صنمٌ، ولا يقال وثن إلا ما كان من غير الصخر كالنحاس وغيره"[2]، والظاهر من أسماء القبائل العربية أنهم كانوا قريبي عهد بالطوطمية (Totemism) [3]، فقد كان منهم من يسمَّى بأسماء الحيوانات مثل: بني أسد، وبني كلب، وبني ضبعة، أو بأسماء الطيور مثل عقاب، نسر، أو بأسماء نباتات مثل حنظلة، حرملة، أو بأجزاء من الأرض كصخر وجبل وسهل.

وكان للعرب أصنام أشهرها التي جاء ذكرها في القرآن الكريم:﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[4] وقوله تعالى:﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾[5].

أما اللات فكانت بالطائف، وذكروا بأنها صخرة مربعة بيضاء[6] بَنَت عليها ثقيف بيتا فهي تعظمه وتكسوه وتحرم واديه، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضا.

وأما العُزَّى فقيل بأنها شجرة لغطفان، ويذكر ابن هشام أنها لقريش وبني كنانة وأنها نخلة، وهي من أعظم الأصنام عند قريش فكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالدِّباغ ويذكرون أن قريشا كانت تطوف بالكعبة وتقول:" واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهنّ الغرانيقُ العُلى وإنّ شفاعتهن لتُرتَجى"[7] وكان ممن يتقدم إليها

(1) المصدر السابق.72/1.

(2) علي الجندي، فيتاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب. القاهرة. مصر. 1998، ص: 77.

(3) ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص:89 . وعبد العزيز سالم ،تاريخ العرب قبل الإسلام، 405/1.

(4) سورة النجم (53) آية: 19-20.

(5) سورة نوح (71) آية: 23.

(6) ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص:90. وتاريخ الفكر الديني الجاهلي. إبراهيم الفيومي. ص: 414 ، وفيه لم سمّيت اللاّت بهذا الاسم. وانظر: الحموي، معجم البلدان، (د.ط)، دار الفكر. بيروت،(د.ت) 1/ 263 مادة (اللات).

(7) عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، 422/1.

بالنذور والهدايا الوليدُ بن المغيرة، وحين فتح الرسول ﷺ مكة في العام الثامن للهجرة أمر خالدا بن الوليد بن المغيرة بقطع شجرة العزى فقطّعَها[1].

وأما مناة فكانت للأوس والخزرج وقيل لخزاعة وهذيل وهي من أصنام العرب القديمة كانت العرب تعظّمها وتذبح لها وتهديها الهدايا، فلما فتح الرسول ﷺ مكة بعث إليها علي بن أبي طالب فهدّمها، وقيل أبا سفيان بن حرب، وهذه الأصنام الثلاثة المذكورة في القرآن إناث عند عرب الجاهلية.

ومن أصنامهم أيضا" إساف" و" نائلة"، وذكروا أن عائشة رضي الله عنها قالت: "مازلنا نسمع أنّ إساف ونائلة كانا رجلا وامرأة من جُرْهُم، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حَجَرَين والله أعلم"[2].

أما هُبَل فكان من أعظم أصنام قريش، وكانوا يستسقمون عنده بالقداح، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله، بعد أن أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه[3]، وباسمه كان ينادي أبو سفيان في معركة أحُد صائحا: أُعْلُ هُبَل[4].

وأما الأصنام الأخرى التي ذكرناها سابقا فقد زعم ابن الكلبي "أن خمسة أصنام من أصنام العرب من زمن نوح، وهي: وُدّ وسُواع ويَغوث ويَعوق ونسر"[5] وقد ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ... ﴿٢٤﴾﴾[6].

(1) عبد العزيز سالم ،المصدر نفسه. 422/1. وفي:علي الجندي، تاريخ الأدب الجاهلي، هامش رقم 07، ص: 78.
(2) سيرة ابن هشام. 77/1.
(3) المصدر نفسه. 14/1. وفيه ذكرُ نَذرِ عبد المطلب ذبح ولده عبد الله، وكان به سبعة أقداح هي: العقل- لا- نعم- ملصق- منكم- من غيركم- المياه).
(4) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص: 91.
(5) الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ص: 420.
(6) سورة نوح (71) آية: 21 وما بعدها.

فأما ودّ فكان بدومة الجندل، وأما سواغ فكان لبني هذيل وكنانة، وكان على شكل امرأة، وأما يغوث فكان صنما لمذحج وعشائر من هوزان، وأما يعوق فكان بأرض همذان من اليمن، وكان نسر معبود حمير[1].

وهناك رواية لابن الكلبي جاء فيها أن ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسر كانوا قوما صالحين " ماتوا في شهر، فجَزِع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجلٌ من بني قابيل: يا قومُ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيهم أرواحا، قالوا: نعم، فنَحَتَ لهم خمسة أصنام على صورهم ونَصَبَها"[2].

2- الصابئة والمجوس:

وكان من العرب من يعبد الكواكب والنار وهم الصابئة والمجوس، ومن خلال ذكر الله للصابئة في القرآن الكريم يتضح لنا أن هناك فرقتين لهم هما صابئة الحنفاء والصابئة المشركون.

فأما الأولى فالتي ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[3] وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾[5]، وهي الفرقة التي اتبعت ملّة إبراهيم عليه السلام وشاركت أهلَ الإسلام في حنيفيّتها، ويذهب عدد من علماء

(1) ينظر: سيرة ابن هشام. 74/1 وما بعدها. والفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ص: 421. وعبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، 413/1 وما بعدها. وشوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص: 90.

(2) عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام ، 414/1.

(3) سورة البقرة (02)آية: 62.

(4) سورة المائدة (05)آية: 69.

(5) سورة الحج (22)آية: 17.

الإسلام إلى أن هذه الطائفة موحِّدة تعتقد بتأثير النجوم وتعظّمها كما تعظّم الكعبة، ولا تعبد الأوثان[1].

والظاهر أنّ تسميتهم بصابئة حنفاء أنهم اشتركوا في التوحيد مع دين إبراهيم، وعارضوا جانبا منه حين قالوا بتأثير النجوم والكواكب ووساطتها.

أما الفرقة الثانية فهي الصابئة المشركون، ولقد اختلفوا عن الأولى في أنهم عبدوا الكواكب والنجوم كغاية وليس كوسيلة، وفارقوا الحنيفية في التوحيد والوحي السماوي.

ولمجاورة العرب للفرس، وخاصة الحيرة، دخلت بعض معتقدات المجوسية أو عبادة النار إلى العرب، وقالوا إنّ المجوسيّة كانت عند عرب الجاهلية في تميم، وأنه من بينهم زرارة بن عدس التميمي، وابن حاجب بن زرارة، والصحابي الجليل الأقرع بن حابس وغيرهم[2].

3- اليهودية والنصرانية في أرض العرب:

انتشر اليهود في العصر الجاهلي بأرض اليمن والحجاز، وهذا بعد أن بدأ شتات اليهود إثر تخريب مدينة: أورشيلم" على يد الرومان سنة 70م[3]، وبقول صاحب الأغاني:" ثم ظهرت الروم على بني إسرائيل جميعا بالشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم، فخرج بنو النضير وبنو قريضة وبنو بَهدَل هاربين منهم إلى مَن بالحجاز لمّا غلبهم الروم على الشام"[4].

واستقروا بيثرب أو المدينة المنورة وخيبر وتيماء ووادي القرى، وكانوا يشتغلون بالتجارة، ويحتكرون بعض الحرف والصناعات كالزراعة والحدادة والنجارة والصياغة وصناعة الأسلحة، كما استطاعوا تعلّم اللغة العربية والنطق بها لمجاورتهم العرب

(1) ينظر إلى رأي علماء الإسلام كأبي حنيفة وابن كثير والقرطبي والألوسي في : الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، 279-282.

(2) ينظر: عبد العزيز سالم ،تاريخ العرب قبل الإسلام، 428/1.

(3) عبد العزيز سالم، المرجع نفسه، 433/1، وانظر أيضا في: الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ص: 183. وشوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص: 97.

(4) الأصفهاني، الأغاني، 113/22. وفيه أخبار أوس (الشاعر) ونسب اليهود.

واحتكاكهم بهم، وبالرغم من هذا الاحتكاك إلا أنهم لم ينجحوا في نشر دينهم، وذلك لأن تعاليمهم تقضي بأنّ دينهم خاص بهم فقط، وأن ما عداهم أمميُّون لا يَرْقون إلى هذا الدين، إضافةً إلى المشقة في شعائرهم وأحكام شريعتهم، وممّا نَفَّر العربَ منهم احتقارُهُم لهم، فقد كانت نفوسهم خبيثة، يتّسمون بالغدر والخداع والمكر والحيلة، ويعتبرونهم عملاء للفرس، وقد بيّن الله في القرآن أساليبهم ونفسيتهم وعقليتهم، وفضح مكرهم وخداعهم ومجادلتهم للرسول ﷺ ومحاولاتهم للإيقاع بين الأوس والخزرج، وبين المسلمين بعضهم مع بعض، مما اضطر الرسول ﷺ إلى إجلائهم من المدينة، "ولم يلبث عمر رضي الله عنه أن أمر بإجلاء كلِّ مَن ليس له عهد منهم، فخرج جمهورهم من الجزيرة، ولم يبق منهم إلا نفرٌ قليل"[1]، وقد نبغ فيهم عدد من الشعراء كالسموأل بن عادياء، وأسلم منهم عددٌ قليل كعبد الله بن سلاّم، ووهب بن منبه، وكعب الأحبار وكعب بن سليم الصحابي ورفاعة القرظي خالِ صفية زوج النبي ﷺ.

أما النصرانية، وهي التي تتبع دين المسيح عيسى بن مريم، فقد اختلف في شأنها فقيل إنها أخِذَت من كلمة "نصارى" أي أتباع، في حين يذهب علماء اللغة الإسلاميين إلى أنها نسبة إلى "النّاصرة" التي نُسِبَ إليها المسيح[2].

وإن كانت اليهودية قد دخلت الجزيرة العربية عن طريق الهجرة والتجارة، فقد انتشرت النصرانية عن طريق البعثات التبشيرية حيث "كانت البعثات الأرثوذكسية منهمكة بصورة خاصة في هداية الزنادقة إلى "حقيقة الكنيسة " في حين كان مبشرو اليَعَاقِبة والنَّسَاطِرة[3] من ناحيتهم يدعون البدو الوثنيين إلى المسيحية بهمّة لا تعرف الكَلَل"[4].

(1) العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 98.

(2) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة " نصر".

(3) اليعاقبة: نسبة إلى "يعقوب البرادعي" وهم أتباع الكنيسة السريانية الغربية أو المونفيستيون، وتأصلت جذورها في سوريا، وهم القائلون بأن المسيح طبيعة واحدة أو أقنوم واحد، وقد دخل في مذهبه الغساسنة، ومن والاهم من عرب الشام. أما النساطرة فنسبة إلى "نسطوريوس" وهم أتباع الكنيسة السريانية الشرقية التي غرست جذورها في إيران، والتي ترى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين: أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت، أي إنسان إله، وقد دخل في مذهبه المناذرة.

(4) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، 67/1.

ولا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نرى النصرانية في أرض نجران، وفي ذلك يقول ابن هشام: " ونجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل، أهلُ فضلٍ واستقامة من أهل دينهم، لهم رأسٌ يقال له: عبد الله بن الثامر"[1].

وقد شاعت النصرانية في أرض العرب في تغلب وبكر وإياد، وفي طيء ودومة الجندل كما " شاعت النصرانية في قبائل شتى بالحيرة، يقال له العِبَاد، ومنهم عديُّ بن زيد[2] العِبادي"[3]، ومن ذلك قوله[4]:

سَـــعَى الأعـداءُ لا يَـألُونَ شَـــرّا عَلَـيَّ ورَبِّ مكَّـــةَ والصَّلِـــيبِ

فنراه قد جمع في قَسَمِه بين ربّ مكة الوثنية وبين ربّ الصليب.

ونراه يقول أيضا مخاطبا النعمان بن المنذر[5]:

أنّـــني والله، فاقْبَـــلْ حَـــلَفِي لَأَبِـــيلٌ كُلَّمـا صَـــلَّى جَـــأَرْ

فهو يحلف بالله، ويشبّه نفسَه بالراهب المتأبّل الذي يتأبّل عن النساء ويترك غِشْيانهن[1].

(1) سيرة ابن هشام. 26/1. ويحكى بعد ذلك سبب دخول أهل نجران في النصرانية عن طريق حديث وهب بن منبه اليهودي الذي أسلم، ويرجعها إلى عبدٍ صالح اسمه " فيميون" كانت له عجائب وغرائب من شفائه للمرضى وللعمي بإذن الله، وحدث يوما أن ذهب مع رجل إلى أرض من أراضي العرب فاعتدوا عليهما وخطفوهما، وابتاع فيميون رجلٌ من أشراف بني نجران وكانوا يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة، وكان أن أسكن الرجل عبدَه في دارٍ حيث كان يصلّي بها، فاسْتَسْرج له البيت نورا، فرأى ذلك سيّده فأعجبه ما يرى منه، فسأله عن دينه فأخبره، وقال لأهل نجران: أنتم في باطل، إن هذه النخلة لا تضرّ ولا تنفع، ولو دعت الله عليها لأهلكها، فأمره سيّده بأن يفعل ففعل، فجاءت ريح فأسقطتها فاتّبَعَه عند ذلك أهل نجران" – انظر: القصة في: سيرة ابن هشام: 26/1-28.

(2) هو عديّ بن زيد بن حماد التميمي، شاعر فصيح من شعراء الجاهلية، وكان نصرانيا وكذلك كان أبوه وأمه وأهله، وليس ممن يُعَدُّ من الفحول، وهو قَرَوِيّ، وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان: عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سُهَيل في النجوم يُعراضُها ولا يجري معها مجراها: مثله عندهم مثل أميّة بن أبي الصّلت، وفي الإسلاميين : الكميت والطّرمّاح، توفي نحو سنة: 35 ق.هـ /590م وله ترجمة في الأغاني.

(3) علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، ص: 77.

(4) الأصفهاني، الأغاني، 103/2.

(5) المصدر السابق.105/2.

وكان ممن اعتنق النصرانية من العرب ورقة بن نوفل، وعتبة بن أبي لهب، وعثمان بن الحويرث، وعبيد بن الأبرص الشاعر وعبيد الله بن جحش[2].

أما زيد بن عمرو بن نفيل فلم يتنصّر ولم يتهوّد بل فارق دينَ قومه " فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان"[3].

ويهمّنا أن نذكر في الأخير أنه قد ورد في بعض أشعار العرب من الشعراء المشهورين كالنابغة وزهير والأعشى وأمية بن أبي الصلت وامرئ القيس وعدي بن زيد أسماءَ الله والإيمان به والحديث في البعث والجزاء وغير ذلك مما ورد وشكَّ فيه أكثر الرواة والمحقّقين[4].

خاتمة:

خاتمة القول من كلّ ما سبق ذكره أنّ هذا الجنس الذي سكن هذه البيئة العربيّة، وعاش هذه العيشة متنقّلا مرة يبحث عن مواطن الكلأ مرّةً، ومستوطنا يبحث

=

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة " أَبَلَ" وقد ورد فيه البيت كما يلي:

أَنَّنِي والله ما سَمِعَ حَلِفِي بِأبِـيلٍ كُلَّما صَـــلّى جَأَرْ.

(2) ينظر ذكر ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو في: سيرة ابن هشام: 204/1.

(3) ابن هشام، المصدر نفسه، 206/1، وينظر خبر زيد بن عمرو في الأغاني، 117/3-124.

(4)من ذلك قول زهير في معلقته: (الزوزني، شرح المعلقات السبع، معلقة زهير، ص: 147)

فلا تكتمنَّ الله ما في نفوسِكم ليخْفَى ومهـما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ

يؤخَّر فيُوضَع في كتابٍ فيُدَّخر ليومِ الحِسابِ أو يُعجَّل فيَنْقَم

- وقول لبيد بن ربيعة: (شرح المعلقات السبع، معلقة لبيد، ص: 251).

فاقنع بما قَسَمَ المليكُ فإنّما قَسَمَ الخَلائقَ عَلاَّمُـــــــــها

- وقول امرئ القيس (شرح المعلقات السبع، معلقة امرئ القيس، ص:55).

يُضِيء سَنَاهُ أو مَصَابيحُ رَاهِبٍ أَمَالَ السَّليـــطَ بالذُّبال المُفَتَّلِ

- وقول الأعشى (الأغاني، 133/9) وفي (ديوان الأعشى، شرح: مهدي محمد، (ط2)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص:154)

اسْتَأثَرَ الله بِالوفَـــاءِ وبالْـ عَـــــــدلِ وَوَلَّى المَلامَـــةَ الرَّجُلا

- وقول أمية بن أبي الصلت (الأغاني: 136/4)

الحَمدُ للهِ مَمْسانا ومَصْبَحَنا بالخَيرِ صَبَّـحَنا رَبّـي ومَسَّـــــانا

وقوله في (ابن منظور، لسان العرب، مادة " سلط"، وانظر الأغاني0 128/4)

إنّ الأَنَامَ رَعـــايَا اللهِ كُلَّهُمُ هو السِّلْطِيطُ فوقَ الأرضِ مُسْتَطِرُ

وفي الأغاني وردت كلمة " مقتدر" بدل " مستطر" وكان يُسَبِّي اللهَ عزّ وجلّ بالسّلطيط والتَّغْرور.

عن الدّعة والسّكينة والهدوء مرّات عديدات، إنما كان مثل غيره من الأمم والأجناس التي كانت تعيش متعاصرة معه ومجاورة له، في كل ما يعتري الإنسان من حياته التي يعيشها منفردا أو بين أفراد مجتمعه.

عاش العرب متفتحين على الأمم المجاورة في أمور التجارة والتقارب الاقتصادي، وعاشوا أيضا منغلقين على بعضهم، يحاربون حين يكونون بحاجة إلى ذلك ويجنحون إلى السّلم ويدخلون فيه كافة حين تضطرهم الظروف وصروف الدهر إلى ذلك اضطرارا.

عاش العرب ضمن إطار اجتماعي منغلق، اعتمد على الانتماء إلى القبيلة والانغماس فيها إلى حد التماهي، وعرفوا أيضا خلاف ذلك خروج أفراد على هذا النظام الواحد الذي كان يسطره الكبراء وأصحاب المال والجاه والتجارة والسياسة والقوة، وكان للمرأة دور في هذه الحياة البسيطة المعيشة، اتخذت أم ولد، واتخذت للهو أيضا وخدمة البيوت، وما كان لها إلا أن تنتظر الإسلام ونبي الرحمة بعد ذلك حين حررها من قيدها القديم ومن ضعف خلقتها إلى سعة لم تكن لتحلم بها.

كان العرب أهل دين وتديّن منذ أن درجت أقدام النبي إبراهيم الخليل عليه السلام أرض الحرم مع زوجه وابنه اسماعيل، وكانوا في تدينهم البسيط هذا أقرب إلى صفاء النفس ونقاء المعتقد، إلا ما استحدث بعد ذلك من عبادة الأوثان التي شابهت ما جاء به السامري لأهل موسى من اليهود وقتذاك.

المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. أحمد أمين، فجر الإسلام، ط11، دار الكتاب العربي، لبنان.
3. الأصفهاني، الأغاني، شرح سمير جابر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
4. بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر، وم.و.ك، الجزائر، 1986.
5. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر، (د.ت).
6. الحموي، معجم البلدان، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، (د.ت)
7. حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، دار الجيل، بيروت، 1986.

8. الزّوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، 1994.
9. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ط18، دار المعارف، مصر، 1995.
10. عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1997.
11. علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب، القاهرة، مصر، 1998.
12. محمد الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، ط4، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994.
13. ابن منظور، لسان العرب، تحق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة،
14. ابن هشام، سيرة ابن هشام، شرح وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الرياض الحديثة، (د.ت).